علاقة التربية بالتعليم والأسوة الحسنة

The Relationship of Character Education, Education and the Role Model of the Holy Prophet

د/عبد الحميد خرّوب *

ABSTRACT

The bond of education and character education is like that of body and soul. In the comprehensive process of Islamic character building, education is an integral part. Character is the provision for life journey where as education is the light on the path.

The recognition of distinct objectives of education and trenchant targets of character education is necessary to solve the crisis of character faced by contemporary world. Education is a lightening experience to develop the skills and awareness whereas character education helps the individual to be sincere with himself, obedient to his Lord, and compliant with the moral values which is the outcome of character education.

The curricula of education, no matter how powerful and evolved may it be, need to be translated into behavior. Therefore, a role model is needed to achieve educational goals. The work of the prophet was characterized with deep insight, strong determination, firmness, honesty. These virtuous qualities caused to enlighten hearts with the right faith.

Character cannot be built thorough ease and quiet, it is a process built upon a philosophy and laws, which springs from the moral values followed by the society.

Islamic character education evolved from the infallible sources of Islamic Sharia: The Qur'an and Sunnah of the beloved Prophet Muhammad (S. A. W) who formed the characters of his noble companions (R. A) in best manner and equipped their generation with everything they needed to lead a successful life in this world and in hereafter.

This paper elucidates the connection between education and character education, and sheds light upon the importance of role model in bringing the change as well as covers the major restraints that shackle the process of education and character education.

Keywords: *Education, Role Model, Character, Islamic shariah, Quran,*

* أستاذ مساعد بقسم الحديث وعلومه، الجامعة الإسلامية العالمية ،إسلام آباد

التربية الإسلامية عملية شاملة كاملة، لجميع قوى الإنسان، والتعليم جزء منها، وعلاقته بالتربية، كعلاقة الرّوح بالجسد، فإذا كانت التربية الزاد الذي يتقوّى به المسافر، حتى لا تنهار قواه، ولا ينقطع عن سيره، فإنّ التعليم هو المصباح الذي ينير له دربه، ويكشف له آفات الطريق، كي يأخذ حذره، ويصل إلى برّ الأمان.

والتمييز بين أهداف التربية وأهداف التعليم، أمر في غاية الأهمية، لأنّ الخلط بينهما عدم وضوح مفهومهما، من أسباب أزمة التربية الحديثة، فإذا كان التعليم يهدف إلى تنمية مهارات الإنسان، وتطوير معارفه، فإنّ هدف التربية هو إحداث تغيير في تعامل الإنسان مع نفسه، وربّه، ومجتمعه، وبذلك يكون التغيير قد شمل عقيدة الإنسان، وفكره وأخلاقه وسلوكه، وهو الثمرة النهائية للعملية التربوية. وهذا العمل لايكون من فراغ، ولا يتحرك بعشوائية، بل هو علم له أصوله وقواعده، التي تنبع من منظومة القيم التي ينتمي إليها المجتمع، ويستمدّ منها حركته.

والتربية الإسلامية مرجعها إلى القرآن الكريم، وسنّة الرّسولﷺ وقد ربّى الرّسولﷺ أصحابه، أحسن تربية، وعلّمهم ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[(١)].

وفي سطور هذا البحث محاولة لتوضيح العلاقة بين التربية والتعليم، وبيان أهمية القدوة الحسنة في التغيير، ورصد أهمّ العوائق التي تعرقل عملية التربية والتعليم عن تحقيق أهدافها، وهذا ما سوف أبيّنه خلال المباحث التالية:

المبحث الأوّل: التربية والتعليم لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: الترابط بين التربية والتعليم.

المبحث الثالث: معوقات التربية والتعليم.

المبحث الرّابع: الأسوة الحسنة.

الخاتمة وفيها أهم النتائج.

المبحث الأوّل: التربية والتعليم: لغةً واصطلاحاً:

التربية لغة: ذكرت معاجم اللغة العربية ثلاثة أصول لكلمة التربية، وهي:

١- إصلاح الشيءِ والقيامُ عليه، فالرّبُّ: المالكُ، والخالقُ، والصَّاحب. والرّبُّ: المصْلِح للشّيء. يقال رَبَّ فلانٌ ضَيعتَه، إذا قام على إصلاحها.

والتربية بهذا المعنى تعني التنشئة والرعاية ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢

مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[١]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[٢].

وعلى هذا المعنى يتنزل قول الأعرابي :

فمن يكُ سائلاً عني فإني بمكّة منزلي وبها ربيتُ[٣]

٢- لُزوم الشيءِ والإقامةُ عليه، وهو مناسبٌ للأصل الأوّل. يقال أربَّت السّحابةُ بهذه البلدةِ، إذا دامَتْ . وأرْضٌ مَرَبٌّ: لا يزال بها مَطَرٌ؛ ولذلك سُمِّي السَّحاب رَباباً.

وهذا يعني أنّ التربية عملية مستمرّة، تستغرق جميع مراحل حياة الإنسان.

٣- ضمُّ الشيء للشَّيء[٤]، وبذلك يحصل النمو والزيادة، كما في قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[٥]﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[٦]

التربية اصطلاحاً:

من مزايا اللغة العربية، أن المعاني الاصطلاحية مرتبطة بمعانيها اللغوية، وبذلك تكون التربية عبارة عن التنشئة والرعاية التي تعنى بتنمية جميع جوانب شخصية الإنسان، في جميع مراحل حياته.

التعليم لغة:

(علم) العين واللام والميم أصلٌ صحيح واحد، يدلُّ على أثَرٍ بالشيء يتميَّزُ به عن غيره ... والعِلْم: نقيض الجهل[٧]. "وعَلِم الشيء بالكسر يعلمه عِلْماً، عرفه، ورجل عَلاَّمةٌ أي عالِمٌ جدا، والهاء للمُبالغة، واسْتَعْلَمهُ الخبر فأعْلَمَه إياه ... وعَلَّمَهُ الشيء تَعْلِيما فتَعَلَّم، وليس التشديد هنا للتكثير بل للتعدية، ويُقال أيضا تَعَلَّمَ بمعنى أعلم "[٨]. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾[٩]، وقوله

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٨

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٤

(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ط أولى، دار صادر بيروت، ٣٠٤/١٤

(٤) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر١٩٧٩م، ٣٨١/٢ - ٣٨٢

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٧٦

(٦) سورة الحج، الآية: ٥

(٧) معجم مقاييس اللغة، ١٠٩/٤ - ١١٠

(٨) الرازاي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ١٩٩٥م، ص: ٤٦٧

(٩) سورة البقرة، الآية: ٣١

أيضا: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾(١).

التعليم اصطلاحاً:

هو نشاط يقوم به المعلّم لنقل ما عنده من معارف ومهارات إلى المتعلّمين، لتكون لهم القدرة على المعرفة، وتحمّل المسؤولية.

المبحث الثاني: الترابط بين التربية والتعليم

ومما سبق يتبين أن الجمع بين التربية والتعليم، أمر لابد منه، لأنّ الفصل بينهما له أضرار كثيرة على حياة الفرد والمجتمع، وإذا نظرنا إلى سير السلف نجد أنهم كانوا يحرصون عليهما جميعا، ويقدّمون التربية على العلم، فهذا ابراهيم بن حبيب بن الشهيد يقول قال لي أبي:

"يا بني ايت الفقهاء والعلماء وتعلّم منهم، وخذ من أدبهم، وأخلاقهم، وهديهم فإنّ ذاك أحبّ إلي لك من كثير من الحديث"(٢).

ومن هنا نعلم أنّ التربية والتعليم عبارة عن مسؤولية لابد من القيام بها، قال الله تعالى: ﴿يأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾(٣).

قال القرطبي: "وقال العلماء: لما قال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ دخل فيه الأولاد؛ لأن الولد بعض منه، كما دخل في قوله تعالى: ﴿وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ فلم يفردوا بالذكر إفراد سائر القرابات، فيعلّمه الحلال والحرام ويجنّبه المعاصي والآثام، إلى غير ذلك من الأحكام"(٤).

وقد أكد الرّسولﷺ على هذه المسؤولية بقوله: « كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٥).

قال الخطابي: "معنى الرّاعي ها هنا: الحافظ المؤتمن على ما يليه، يأمرهم بالنصيحة فيما يلونه، ويحذّرهم أن يخونوا فيما وكل إليهم منه أو يضيّعوا، وأخبر أنّهم مسؤولون عنه، ومؤاخذون به"(٦). وتبدأ

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٣

(٢) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق، د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ، ١/ ٨٠

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦

(٤) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية ٢٠٠٣م، ١٩٥/١٨

(٥) البخاري، الجامع الصّحيح، كتاب العتق، باب العبد راع في مال سيّده، ص: ٤١٣، رقم ٢٥٥٨

(٦) الخطابي، أبو سليمان محمد بن محمد، معالم السنن، ط أولى، المطبعة العلمية، حلب- سوريا، ١٩٣٢م، ٢/٣

هذه المسؤولية من الأسرة، حيث أنّها المحطّة الأولى التي يتلقّى فيها الإنسان التربية والتعليم، قال جمال الدين القاسمي:

"والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه، نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب"(١).

والمحطّة الثانية التي لها أثر كبير في تربيته وتعليمه، هي المدرسة، فإن كانت مقرراتها ومناهجها في المستوى المطلوب، نشأ نشأة تعود بالخير عليه، وعلى مجتمعه، وإن كانت غير ذلك، أثّرت سلبا عليه، وعلى مجتمعه.

المبحث الثالث: معوّقات التربية والتعليم:

بين الأسرة والمدرسة، نجد المحيط الواسع الذي يمارس فيه الإنسان حياته، فيكتسب منه الخبرات المتنوّعة، ويؤثّر فيه، ويتأثّر به، وهذه العملية التربوية، ليست مفروشة بالأزهار والورود، بل دونها عقبات كثيرة، تعوق الإنسان عن الاستقامة، وتحقيق الصّلاح والإصلاح، وأهمّ هذه المعوّقات هي:

١- فساد الأسرة.
٢- فقدان الأسوة الحسنة.
٣- خلطة السّوء.
٤- فساد المحيط الاجتماعي.
٥- ضعف مناهج التربية والتعليم.
٦ — التغريب الفكري.

ورغم خطورة هذه المعوقات، إلا أنّ أشدّه خطورة فساد الأسرة، قال جمال الدين القاسمي عن تأثير الأسرة الفاسدة في الأبناء:

"وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم، شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه. . . . . ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا، فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد"(٢).

---

(١) القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد، موعظة المؤمنين، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م، ص: ١٨٤

(٢) موعظة المؤمنين، ص: ١٨٤

وبيّن ابن القيم كيف يتعدّى فساد الآباء إلى أبنائهم فقال:

"فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه، وتركه سدًى فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغاراً، فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كباراً"(١).

لذا ينبغي التركيز على الاهتمام بإصلاح الأسرة، لينشأ الأولاد تنشئة صالحة، لأنّ البناء المعمّر لا يقوم إلا على أسس متينة، وجدران متماسكة، وتقوية صلة الإنسان بالله تعالى، وتذوّقه حلاوة عبادته، وغرس الخوف منه في قلبه، والمداومة على ذكره، والالتزام بطاعته، يجعل بناءه النّفسي متماسكا، صامداً في وجه العواصف الهوجاء، مقاوماً لكلّ حملات الفساد التي تستهدفه، ولا تمتدّ إلا في الفراغ الرّوحي.

يقول الشيخ الإبراهيمي:

"وإنها لكبيرة أن ينشّأ الشابّ على الخير والاتصال بالله من الصّغر، ولكن جزاءها عند الله أكبر، لما يصحبها من مغالبة للهوى في لجاجه وطغيانه، ومجاهدةٍ للغريزة في عنفوانها وسلطانها، ولهذا السرّ عدّ ﷺالشّاب الذي ينشأ في طاعة الله أحد السّبعة الذين يظلّلهم الله بظلّه يوم لا ظلَّ إلاّ ظلّه"(٢).

وهذا يدلّ على أن العلاقة الصّحيحة بين التربية بالتعليم، تؤدّي إلى الانضباط النّفسي، والسّلوكي، فتربية الإنسان على مجاهدة النّفس، تحفظ له طهارة قلبه وروحه، وتجعله يراقب الله تعالى في السرّ والعلن ويبتغي مرضاته، وتعلّمه أنّ مسؤولية تزكية نفسه، هي من واجباته التي إن قام بها، أفلح، وإن ضيّعها خسر، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾(٣).

كما أنّها تحذّره من عواقب الانحراف، واقتراف المعاصي، لأنّها تنكت في القلب نكتا سوداء، مكوّنة غمامة تقف حاجزا بينه وبين رؤية الحقّ، وتزيّن له الباطل، قال تعالى: ﴿ كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٤).

---

(١) ابن قيم الجوزية، تحفة المودود بأحكام المولود، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ط أولى، مكتبة دار البيان، دمشق ١٩٧١م، ص: ٢٢٩

(٢) الإبراهيمي، الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ط أولى، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م، ٢٧٠/٤

(٣) سورة الشّمس، الآية: ٧- ١٠

(٤) سورة المطففين، الآية: ١٤

المبحث الرابع: الأسوة الحسنة:

إنّ مناهج التربية والتعليم مهما كانت قوية ومتطورة، فهي بحاجة إلى من يحولها إلى سلوك في الحياة، وبدون ذلك تبقى حبرا على ورق، ولذلك فإن القدوة الحسنة أمر لازم لتحقيق أهداف التربية والتعليم، وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم أن يبلّغ الرّسالة التي نزلت عليه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾(١)، ووصفه بالدّاعية إليه فقال: ﴿يَا أَيُّهَاالنَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾(٢).

فامتثل النّبي أمر ربّه، وبدأ يدعو النّاس إلى التوحيد الخالص، ويمحو بنور الحقّ طبقات الظّلام التي تراكمت مع طول الأمد على فطرة الإنسان، فأوقعته في براثن الإثم والشّرك، وكان يدعو بنظرة عميقة وعزيمة قويّة، ونفس ثابتة، ولهجة صادقة، وهذه الصّفات الفاضلة كانت سببا في تنوير قلوب كثيرة بالإيمان الحقّ وحين اطّلع"اتيين دينيه"على طبيعة هذا الدّين الجديد، وقرأ سيرة الرّسول المربّي، عرف أنّه كان يحبّ الخير للنّاس ويسعى لإخراجهم من الظّلمات إلى النّور فقال:

"وكان مظهر الدّين الجديد في بساطته وعظمته، وفي انسجامه مع ماتتطلّع إليه الفطر السّليمة، يجعلهم يشعرون بنفور شديد من عبادة الأصنام التي عاشوا عليها طيلة ماضيهم، ومع كلّ فهذا الدّين الجديد إنّما هو دين جدّهم إبراهيم الذي يحملون أثره بطريقة لاشعورية في قلوبهم وكان من السّهل عليهم لذلك أن يدينوا به من جديد، وكانت لهجة الدّاعي إليه، تلك اللّهجة التي تسمو فوق حدود الإنسانية، وكانت نظرته التي يشعّ منها الضّياء تخرجهم من الظّلمات إلى النّور، فيسرعون إلى اعتناق الإسلام بين يديه"(٣).

فهوﷺ قدوة الدّعاة والمربّين والمعلّمين، ومثلهم الأعلى الذي يتطلّعون إليه، وسيرته هي المورد العذب الصّافي الذي لا كدر فيه، وقد أقرّ بسموّ شخصية النّبيﷺ المستشرق الألماني برتلمي سانت هيليار فقال:

"فكان النّبي داعيا إلى ديانة الإله الواحد، وكان في دعوته هذه لطيفا ورحيما حتّى مع أعدائه وإنّ في شخصيته صفتين هما من أجلّ الصفات التي تحملها النّفس البشرية وهما العدالة والرّحمة"(٤).

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥ – ٤٦

(٣) اتيين دينيه، محمّد رسول الله، ص: ١١٧

(٤) هيليار، برتلمي سانت، الشّرقيون وعقائدهم، ص: ٣٩، نقلا عن محمّد الشّريف الشيباني، الرّسول في الدّراسات

ولو وقف الإنسان عند كلّ صفة من صفات شخصية الرّسولﷺ لوجد نفسه منجذبة إليها، بالحبّ والإعجاب والتقدير، وهذا ما حدا بشاعر فرنسا الكبير"لامرتين"إلى أن يبدي إعجابه الشّديد بنبي الرّحمة فيقول:

"لقد كان محمّد فيلسوفا وخطيبا ومشرّعا وقائدا، وفاتح فكر، وناشر عقائد تتّفق مع الذّهن ومنشيء عشرين دولة في الأرض، وفاتح دولة في السّماء من النّاحية الرّوحية، أيّ رجل قيس بجميع هذه المقاييس التي وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه "(١).

ولقد عبّر عن هذا المعنى أحد المقرّبين منه، حيث كان يرقب حركته، ويتابعه في الصّغيرة والكبيرة، فلم تقع عينه على عيب فيه، بل وجده في كلّ شيء عظيما، فأقرّ بهذه الحقيقة النّاصعة التي يراها ماثلة أمام عينيه بقوله:

وأَحسنُ منكَ لم ترَ قطُّ عينى وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النّسَاءُ

خلقتَ مبرَّأً منْ كلّ عيبٍ كأنكَ قدْ خلقتَ كما تشاءُ

ومن أبرز صفات الرّسولﷺ رقّة القلب، ولين الجانب، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (٢)، وحياته ﷺ كلّها تربية وتعليم على الحق، ورحمة بالخلق، فقد كان في تربيته وتعليمه، يخاطب عقل الإنسان هذا العقل الذي هو من أكبر النّعم التي أنعم الله بها على الإنسان، كان يدعوه إلى التأمّل والتفكير في نفسه وفي الكون، كان يدعوه إلى الحوار ويعرض عليه دعوته واضحة وضوح الشّمس، ليسأل الإنسان نفسه: كيف يصنع النّاس بأيديهم آلهة من الحجارة تكون عرضة للغبار والأوساخ والحشرات ثمّ يسجدون لها ويتمسّحون بها ويرجون بركتها في حلّهم وترحالهم؟ هل تغني عنهم تلك الحجارة شيئا؟ هل تدفع عنهم ضرّا أو تجلب لهم نفعا؟ إلاّ أنّ الإنسان الذي غيّب عقله، وعطّله عن وظيفته، وتركه يغطّ في سبات عميق، أضحى يستلذّ المهزلة التي هو فيها، ويصنع من التقليد الأعمى والجهالة والتعصّب سلاح مقاومته، حتّى صار عبدا لمن دونه، ولقد طلب الدّاعية الرّحيم من الإنسان أن يتحرّر من هذه القيود التي صنعتها يداه، دعاه إلى الخروج من الظّلام الذي جعله لايبصر نور الحقّ، دعاه إلى أن ينتفض من الرّكود الذي أثقل حركته، دعاه إلى أن يطرح الأغطية الثّقيلة التي جعلته يغطّ في نوم عميق، دعاه إلى نهضة هو رائدها إلى فجر جديد. ولقد خاض الإنسان في

الاستشراقية المنصفة، نسخة إلكترونية، ص: ١١٤

(١) الكتاب التذكاري للمؤتمر العالمي الرّابع للسّيرة والسنّة النّبوية الشّريفة، ملف خاصّ عن النّبي ﷺ القاهرة، ١٩٨٥م، ص: ٥٧٨

(٢) سورة آل عمران: ١٥٩

شتىّ ميادين المعرفة، واقتحم ساحة الغيبيات مجرّدا من وسائلها فلم يجن إلاّ التّعب وبقي مستمرّا في بحثه مدفوعا بحبّه للمعرفة واكتشاف المجهول، لكنّه ضلّ طريقه، وخلص إلى نظريات هي للخرافة والأساطير أقرب منها للعلم والحقيقة. وظلّ العقل حائرا في مأساته يتطلّع إلى من يرحمه، ويخلّصه من شقاوته في الغيب والشّهادة، ويوجّهه الوجهة الصّحيحة التي ينتج فيها ويبدع، فجاء ﷺ ورفع من شأن العقل، ووجّهه إلى ميادين التفكير النّافعة المجدية، وأنقذه من التيه والضّياع الذي كان فيهما، وجعل التفكير فريضة من فرائضه، وقد نالت دعوة التوحيد التي نادى بها الرّسول الكريم إعجاب الأنجليزي توماس كارلايل فقال:

"ونظر محمّد من وراء أصنام العرب الكاذبة، ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم نظر ابن القفار والصّحارى بقلبه البصير الصادق، وعينه المتّقدة الجليّة إلى لباب الأمر وصميمه فقال في نفسه: الوثنيّة باطل وهذه الأصنام التي تصقلونها بالزيت والدّهن فيقع عليها الذّباب أخشاب لاتضرّ ولاتنفع، وهي منكر فظيع وكفر لو تعلمون، إنما الحقّ أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له خلقنا وبيده حياتكم وموتكم وهو أرأف بكم منكم، وما أصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون"(١).

إنّ هذه الدّعوة التي تكافح كي تستقرّ في الأعماق، ليست غريبة على فطرة الإنسان، إنّها تذكرة ورحمة وصوتها الذي دوّى في الأرجاء صوت قلب رحيم، وما أجمل التشبيه الذي شبّه به السيّد محمّد علي دعوة الرّسول ﷺ حين قال:

"ولما حان وقت إرسال الله رسالته إلى العالم أجمعين، أرسل النّبي محمّدا ﷺ فظهرت شمس الهداية في سماء بلاد العرب، لتنير العالم كلّه وتهديه إلى الطّريق القويم، نزل الرّسل وفي يد كلّ منهم مشعل من نور الهداية، وما كانت هذه المشاعل لتضيء إلا أفقا خاصّا ولكن ما أشرقت شمس الإسلام حتّى بهرت هذه المشاعل، وأصبح نورها وحده كافيا لإنارة السبيل أمام العالم، حتّى يرث الله الأرض ومن عليها"(٢).

ولقد وفّق نبيّ الرّحمة فيما دعا إليه بعد مكابدة وعناء، وأصبح الإنسان الذي كان عبدا للأصنام إذا تذكّر ماضيه الشّقي اهتزّ ضحكا وسخرية، وكأنّه لايصدّق نهاية المهزلة التي كان يعيشها، وتحرّره من أغلال الجهل التي كانت تكبّله. وكان الرّسول محمّد ﷺ في دعوته نعم المربّي والمعلّم، إذا تحدّث تأنّى في الحديث وأعاده ثلاث مرّات حتّى يسمعه من لم يكن قد سمعه، ويستعمل في خطابه وسائل الإيضاح عند

(١) توماس كارلايل، الأبطال، المطبعة المصرية، ط ثالثة، ١٩٣٠، ص: ٧٣

(٢) ترجمة مصطفى فهمي وعبد الحميد جودة السحار، مولاي محمّد علي، محمّد ورسالته، دار مصر للطّباعة، ص: ٢٥٧

الحاجة، وينوّع في أساليب حديثه، فمن أسلوب التوجيه المباشر إلى أسلوب الحوار، وضرب الأمثال والقصص، وأحيانا يطرح المسائل التي تثير انتباه المدعوين واهتمامهم بها، ولايكثر على النّاس بل يقتصد في الأمور كلّها، يشجّع المحسن ويثني عليه ولايعنّف المخطىء بل يترفّق به، ينتهز الفرص ليلقي في النّفوس المعاني التي يريدها، فتكون أوضح وأوكد وأرسخ

"إنّ محمّدا عليه السّلام كان من المعلّمين الأفذاذ الذين عرفوا أطباع تلامذتهم، ثمّ لقّنوهم الدّروس التي لم تكن في يوم أسمى من تفكيرهم ولا أعلى من إدراكهم، أو أكبر من عقولهم، ولكنّها خلقت منهم قادة ممتازين لأنّها تدرّجت معهم تدرّجا منطقيّا"[١]

والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها:

تقييم الدّنيا:

لمّا كان التعلّق بالدّنيا والتّنازع عليها يورث الخصومة بين النّاس، ويملأ القلوب قسوة وطغيانا، فقد حذّر النّبي أصحابه من الوقوع في شركها، وبيّن لهم صورتها الحقيقيّة لئلاّ يغترّوا بها، روى مسلم بسنده أنّ النّبي ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ[٢] مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»[٣].

وكان في تعليمه أبا حنوناً، يعطف على المتعلّمين، ويصبر عليهم، ويأخذ بأيديهم، ويتواضع لهم، ولايترفّع عن تعليمهم حتّى آداب قضاء الحاجة، فيقول لهم: «إنَّما أنا لكم بمنزلةِ الوالدِ أُعلِّمُكُم، فإذا أتى أحدُكُمُ الغائِطَ فلا يَستَقبِلِ القبلَةَ، ولا يَستَدبِرْها، ولا يَستَطِبْ بيمينِهِ»[٤].

وكان يربّي أصحابه على محاسن الأخلاق، ويحبّب إليهم الرّحمة، ويعلّمهم كيف يتراحمون فيما بينهم ويغرس في نفوسهم حبّ الخير، ويحثّهم على التكافل الاجتماعي، ويرشدهم إلى ضرورة الاهتمام

---

(١) زكريا، مهندس زكريّا هاشم، المستشرقون والإسلام، الكتاب العشرن، ١٩٦٥م، ص: ٥٥

(٢) أي صغير الأذنين.

(٣) مسلم، الصحيح ، كتاب الزّهد والرّقائق، باب الدّنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر، ط ثانية، دار السّلام، الرّياض، ٢٠٠٠م، ص: ١٢٨١، ١٢٨٢

(٤) أبو داود، السنن، كتاب الطّهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، دار السّلام، الرّياض، ط أولى، ١٩٩٩م، ص: ١٣- ١٤، رقم ٨. قال الألباني: "وهذا إسناد حسن، رجاله رجال الصّحيح غير أنّ ابن عجلان إنمّا أخرج له مسلم متابعة

بإنقاذ العالقين في وحل الملذّات والمعاصي، وأن يكونوا لهم قوارب نجاة، ويزرعوا في قلوبهم الأمل، وييسّروا لهم سبيل الهداية والرّشاد وحياة الدّاعية الرّحيم كلّها شواهد على ذلك، ومنها:

زرع الأمل:

إذا نطق الإنسان بالشّهادتين وأعلن صادقا دخوله في الإسلام، فإنّ الله يغفر له ما مضى من خطاياه وإن بلغت عنان السّماء، قال ﷺ: «الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ»(١)، وبذلك يبدأ حياة جديدة بيضاء صفحاتها فليحرص على أن يكتب فيها ما يجعله يفوز برضوان الله تعالى، وحتّى لو أخطأ ووقع في الذّنب فعليه أن يعجّل بالتوبة والاستغفار، وأن لا يصرّ على الذّنب وإن كان صغيرا، فإنّ ذنوبه وإن كانت كبيرة ولقي الله لايشرك به شيئاً فإنّ الله قادر على أن يغفرها له.

قال ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ ما دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلاَ أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغت ذُنُوبُك عَنَانَ السماءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايا، ثُمَّ لَقَيْتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئاً، لأَتَيْتُكَ بقُرَابِها مَغْفِرَةً»(٢)، وإنّ هذه المغفرة العظيمة التي تطهّر الإنسان من أوساخ الذّنوب التي اقترفها، من شأنها أن تعيد إليه تماسك نفسه وتوازنها، وتؤهله لأن يكون فردا صالحا في مجتمعه، قويّا في مواجهة تحدّيات الحياة الدّنيا، وهذه المغفرة من رحمة الله التي جعلها تغلب غضبه، قال ﷺ : « لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»(٣).

وهذا النّهج النّبوي يجعل الإنسان يتعلق بالرّحمة التي تملأ قلبه بالرّجاء والإنابة إلى الله تعالى، ولا

---

(١) البيهقي، السّنن الكبرى، كتاب السّير، باب ترك أخذ المشركين بما أصابوا، دائرة المعارف النّظامية، حيدر آباد، الهند، ط أولى، ١٣٤٤هـ، ١٢٣/٩، رقم: ١٨٧٥٣

قال الشيخ الألباني: "صحيح" . انظر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السّبيل، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ثانية، ١٩٨٥م، ١٢١/٥، وقال الهيثمي: "رواه أحمد والطّبراني إلا أنه قال: حدثني عمرو بن العاص من فيه إلى أذني ورجالهما ثقات". انظر الهيثمي، منبع الزّوائد، كتاب المناقب، باب ماجاء في عمرو بن العاص، ٥٨٤/٩

(٢) الترمذي، جامع الترمذي، كتاب الدّعوات، باب الحديث القدسي يا ابن آدم، دا ر السّلام، الرّياض، ط أولى، ١٩٩٩م، ص: ٨٠٧، رقم ٣٥٤٠. وقال: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه". وقال الشيخ الألباني : حسن". انظر الألباني، السّلسلة الصّحيحة، مكتبة المعارف، الرّياض، ٢٤٩/١، رقم ١٢٧، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني في الثلاثة وفيه إبراهيم بن إسحاق الصيني وقيس بن الرّبيع وكلاهما مختلف فيه وبقية رجاله رجال الصّحيح. انظر الهيثمي، مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢ هـ، ٣٦٣/١٠

(٣) الجامع الصّحيح، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: وهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ " (الرّوم:٢٧)، ص: ٥٣٢

تبقي في نفسه شيئا من اليأس، وقد كان الرّسولﷺ يربي أصحابه، فيروي لهم عمّن سبقهم ما يعمّق معنى الرّحمة في نفوسهم حتّى لايقنطوا من رحمة الله، فيقول لهم: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ " قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ وَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا وَمَاتَ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي قَالَ: فَوَجَدُوهُ أَقْرَبَ إِلَى هَذِهِ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ»(١).

وعن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال:« قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ ، فَإِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ وَاذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ثُمَّ قَالَ لِمَ فَعَلْتَ قَالَ مِنْ خَشْيَتِكَ ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ ، فَغَفَرَ لَهُ»(٢)، ومع هذه الرّحمة الواسعة التي إن عرفها الكافر لم يقنط من دخول الجنّة، فإنّ عذاب الله شديد، إن علمه المؤمن لم يأمن من دخول النّار، قال ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنْ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنْ النَّارِ »(٣).

صدق الشعور:

يعجز الإنسان أحيانا عن تمييز مظاهر الرّحمة الكاذبة من الرّحمة الصّادقة، وقد كان ﷺ يعلّم النّاس صدق العاطفة وحقيقة الرّحمة، فيروي لهم عمّن سبقهم ما ينأى بهم عن المظاهر الكاذبة التي يلجأ إليها أصحابها لتحقيق أغراض عاجلة غير مكترثين بالأضرار التي تصيب غيرهم فيقول لهم: « كَانَتْ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ صَاحِبَتُهَا إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ وَقَالَتْ الْأُخْرَى إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا فَقَالَتْ الصُّغْرَى لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى»(٤).

الرّفق بالنّاس:

نوّع المربّي الرّحيم ومعلّم النّاس الخير، من أساليبه في غرس صفة الرّحمة في قلوب العباد، فمن أسلوب القصّة إلى الأسلوب المباشر، يوجّههم ويدعوهم، ويرغّبهم في التلطّف والترفّق بالنّاس في كلّ

---

(١) نفس المرجع، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٥٤)، ص: ٥٨٥

(٢) نفس المرجع، كتاب التّوحيد، باب قوله تعالى"يريدون أن يبدّلوا كلام الله" (الفتح:١٥)، ص: ١٢٩٢

(٣) نفس المرجع، كتاب الرّقاق، باب الرّجاء مع الخوف، ص: ١١٢٢

(٤) المرجع السابق، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى"ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنّه أوّاب"، ص: ٥٧٦، ٥٧٧

شيء، فعن عائشة رضي الله عنهاأنّ النّبي ﷺ قال لها:« إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»(١).

وقد أكّد النبيّ ﷺ على الرّفق في كلّ الأمور، وفي كلّ الأحوال، لأنّ الرّفق سبب لكلّ خير، فهو ينمّي الرّحمة في قلب الإنسان، ويمنعه من العنف والتشدّد، وبه تتحقّق أغراض كثيرة، وتتيسّر مطالب عديدة وتصفو قلوب بعد كدرها وتتواصل نفوس بعد تقاطعها، ويذهب مافي الصدور من إحن، ويحصل به ثواب كبير وقد أراد ﷺ أن يتحلّى الإنسان بهذا الخلق العالي الذي يجعل الإنسان يحبّ أخاه الإنسان، وخاصّة من ولي شيئاً من أمور النّاس ولذلك شدّد على هذا الصّنف الذي يجعل من مكانته وسيلة للعنف وإرهاق النّاس، وأيّما بيت دخله الرّفق فقد دخله خير كثير، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا أَدْخَلَ عَلَيْهِمْ الرِّفْقَ»(٢)، وقال لأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها :« يا عائِشة إنّ اللّه رفِيقٌ يحِبّ الرّفق ويعطِي على الرّفقِ ما لا يعطِي على العنفِ وما لا يعطِي على ما سِواه»(٣)، وبيّن أنّ الرّفق إذا خالط الأعمال زانها ، فقال: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»(٤)، وذكر أنّ العنف ينأى بصاحبه عن الخير فقال: «من يحرم الرّفق يحرم الخير»(٥) ، وأمّا من تحلّى بالرّفق حتّى صار خلقا له، فقد نال حظّه من الخير، قال ﷺ: «من أعطي حظّه من الرّفق فقد أعطي حظّه من الخير ومن حرم حظّه من الرّفق فقد حرم حظّه من الخير»(٦)، واعتبر الأخلاق الحسنة أثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة فقال: « أَثْقَلَ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْخُلُقُ الْحَسَنُ»(٧).

---

(١) الإمام أحمد، المسند، باقي مسند الأنصار، حديث السيّدة عائشة، الأحاديث مذيّلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها، مؤسّسة قرطبة القاهرة، ١٥٩/٦. قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشّيخين غير محمّد بن مهزم فمن رجال" التعجيل". وقال الهيثمي: "رواه أحمد ورجاله ثقات إلاّ أنّ عبد الرّحمن بن القاسم لم يسمع من عائشة، انظر الهيثمي، مجمع الزّوائد، ٢٨٠/٨. وقال الألباني: صحيح" انظر الألباني، السّلسلة الصّحيحة، مكتبة المعارف، الرّياض، ٤٨/٢

(٢) الجامع الصّحيح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م

(٣) الصّحيح لمسلم، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب فضل الرّفق، ص: ١١٣٣

(٤) نفس المرجع السابق

(٥) نفس المرجع السابق

(٦) جامع الترمذي، كتاب البرّ والصّلة، باب ما جاء في الرّفق، ص: ٤٦٤ وقال: "حديث حسن صحيح". وقال الألباني: "صحيح ". انظر الألباني، صحيح الأدب المفرد للبخاري ـ دار الصدّيق، ط١ ، ١٤٢١هـ، ص: ١٩١

(٧) البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق محمّد السّعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى،

العفو عند المقدرة:

بعد أن أعرض المشركون عن الاستجابة للرّسول، وخذلوه واضطهدوه، وألحقوا به وبأصحابه أذى كثيرا خرج من مكّة إلى الطّائف لعلّه يجد آذانا صاغية، وقلوبا واعية، مشى مسافة ٧كلم في حرّ الشّمس وجلس إلى أشرافهم ودعاهم إلى الحقّ المبين، ولكنّهم أصرّوا على ضلالهم، واستكبروا على دعوته، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم وصبيانهم، يسبّونه ويرمونه بالحجارة، ورفيق سفره زيد بن حارثة يتصدّى للقوم من غير سلاح، ويقيه بجسمه ويدعوهم للكفّ عنه دون جدوى، حتّى أدموا قدميه الشريفتين، فلجأ إلى بستان في طريقه، حزينا على القوم الذين كافؤوه على الخير الذي جاءهم به بالحجارة والسّخرية والاستهزاء، فأين يذهب بعد أن أخرجته مكّة وطردته الطّائف؟ وقد روى ابن إسحاق هذه الواقعة الأليمة، فقال:

"واغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به حتّى اجتمع عليه النّاس وألجئوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وهما فيه ورجع عنه سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظلّ حَبَلَةٍ من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطّائف "[١].

في هذا الموقف الذي تنقبض فيه النّفس، وتشتدّ على قساة القلوب، غلاظ الأكباد، وتتوعّد بالانتقام من الجفاة المعتدين، نرى الرّسول الدّاعية ينقش في جبين التاريخ المثل الأعلى في رقّة القلب وحنانه، وسعة رحمته بالخلق وحبّه الخير للنّاس أجمعين، فلم يكن رجل حقد وضغينة، ينتظر الفرصة ليشفي غليله ممّن آذوه، بل لجأ إلى ربّه شاكيا إليه ضعف قوّته، طالبا منه الصّبر والعون، ومع كلّ مالحقه من أذى، فقد بقي محبّا لهم الخير، راجيا لهم الحياة السّعيدة، مناجيّا ربّه بكلمات تذيب الحجارة والحديد، متضرّعا إليه في خشوع قائلا: «اللّهمّ إليك أشكو ضَعف قوّتي، وقلّة حيلتي وهواني على النّاس، ياأرحم الرّاحمين أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني؟ أم إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكنّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الّذي أَشرقت له الظّلمات، وصلح عليه أمر الدّنيا والآخرة من أن تُنْزل بي غضبك، أو يَحِلّ عليّ سُخطُك، لك العُتْبَى حتّى

١٤١٠هـ، ٢٣٨/٦، ورواه البخاري، الأدب المفرد، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ثالثة، ١٩٨٩، ص: ٨١

(١) ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السّيرة النّبوية، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط ثالثة، ١٩٩٠م، ٤١٩/١، ٤٢٠

ترضى، ولاحول ولا قوّة إلاّ بك»[1]، فيستجيب له ربّه، ويرسل لنصرته الأشدّاء الأقوياء الذين لايعصون له أمرا، ويجعلهم رهن إشارته لينتقموا له من المسيئين إليه.

الدّاعية الرّحيم لايعرف الانتقام، ولئن كان جسمه يقطر بالدّماء، فإنّ قلبه يسيل بالرّحمات إنّه عفوّ متسامح يحزن حين يرى الجاهلين هلكى يتدحرجون في الهاوية، إنّه جاء لإنقاذهم من الباطل الذي زيّنه لهم الشّيطان، فلن يخذلهم حتّى لو ناصبوه العداء، إنّه يرجو أن يأتي اليوم الذي تشرق فيه قلوبهم بالإيمان ولذلك أبى أن يدعو عليهم بالهلاك، بل طلب لهم الهداية والمغفرة.

روى البخاري بسنده عن عروة أنّ عائشة رضي الله عنها زوج النبيّ ﷺ حدّثته أنّها قالت للنبيّ ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ قال: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ[2]، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا »[3].

إنّه ﷺ أبى أن يدعو بالهلاك على الذين رفضوا الإيمان به، ومنعوه من حريّة الكلمة وصمّوا آذانهم في وجهه، ولم يمنحوه فرصة ليحاورهم، وأسالوا دمه الشّريف، واضطهدوه وأصحابه وتصدّوا لهم بكلّ أنواع الأذى، ومع أنّ عقاب الاستئصال كان جاريا مع الأقوام السّابقين كقوم نوح وعاد وثمود ولوط وقوم صالح، لمّا كفروا بالله ورسله وكانوا ظالمين، استأصل الله شأفتهم، قال تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا

(١) المرجع السابق، ٤٢٠/١، ٤٢١، وأخرجه ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرّجال، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ثالثة، ١٩٨٨م، ١١١/٦، قال الشّيخ الألباني: " ضعيف" انظر الألباني السّلسلة الضّعيفة، مكتبة المعارف، الرّياض، ٤٣٥/٦، وعلّته ابن إسحاق وهو مدلّس إلاّ أنّه ثقة، قال الهيثمي: "رواه الطّبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلّس ثقة وبقية رجاله ثقات"، انظر مجمع الزّوائد، ٣٧/٦

(٢) الأخشب من الجبال، الخشن الغليظ وهما جبلا مكة أبو قبيس والجبل الذي يقابله .

(٣) الجامع الصّحيح، كتاب بدء الخلق، باب "إذا قال أحدكم آمين . . . "، ص: ٥٣٩ . وانظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب مالقي النّبي من أذى المشركين والمنافقين"، ص: ٨٠٠

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]، ولكنّ الرّسول الدّاعية استمع إلى ما عرضه عليه ملك الجبال ثمّ اختار الصّبر عليهم، ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وجدالهم بالتي هي أحسن شفقة ورحمة بهم، فما أرحمه من إنسان!وما أوسع الرّحمة التي سكنت قلبه!.

فهل بعد هذا يقال إنّ دعوته انتشرت بالسّيف؟ وهل كان السّيف في يد الدّاعية الرّحيم أم في أيدي المشركين المستكبرين؟ وهل كان السّيف يشهر لنشر الدّعوة أم لاعتراض سبيل انتشارها؟ وهل الدّاعية الرّحيم أخرج قريشا من ديارها وصادر أموالها؟ أم هي التي فعلت ذلك به وبأصحابه؟ وهل كان الرّسول يكره النّاس على اعتناق الإسلام؟ أم خصومه هم الذين يكرهون المسلمين على ترك دينهم؟

إنّ الرّسول ﷺ لم يكره أحدا على اعتناق الإسلام، بل كان ينهى النّاس عن الإكراه، ويقرأ عليهم قول الله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [2]، وقد جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة أنّه كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف، ابنان متنصّران قبل مبعث النّبي ﷺ ثمّ قدما المدينة في نفر من النّصارى يحملون الزّيت، فلزمهما أبوهما وقال: لا أدعكما حتّى تُسلما، فأبيا أن يُسلما فاختصموا إلى النّبي ﷺ فقال: يارسول الله أيدخل بعضي النّار وأنا أنظر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [3] فخلّى سبيلهما[4].

وقد بيّن القرآن الكريم أنّه ليس للرّسول أن يكره أحدا على الدّين فقال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[5]، وأمره بالبلاغ فقط، فقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاّ الْبَلاغُ﴾[6]، وقال أيضا: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[7]، وترك مسألة الإيمان لاختيار الإنسان ومشيئته، فقال: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[8].

ومع أنّ المشركين استعملوا وسائل عديدة، وأساليب مختلفة، لتنفير النّاس من الرّسول ﷺ فاتهموه

(١) سورة العنكبوت الآية: ٤٠

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦

(٤) الواحدي، علي بن أحمد النّيسابوري، أسباب نزول القرآن، تحقيق كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط أولى، ١٩٩١م، ص: ٨٦. والحديث مرسل، وانظر عبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطي، لباب النّقول في أسباب النُزول، دار إحياء العلوم، بيروت، ص: ١٣٧

(٥) سورة يونس، الآية: ٩٣

(٦) سورة الشّورى، الآية: ٤٨

(٧) سورة الغاشية، الآية: ٢٢

(٨) سورة الكهف، الآية: ٢٩

بالجنون والسّحر وغير ذلك من الأوصاف التي يتنَزّه عنها، لكنّنا لم نجد أيّ أحد منهم اتّهمه بالعنف وإجبار النّاس على الإيمان بحدّ السّيف، وحريّ بأولئك الذين يهرفون بما لايعرفون، ويدّعون انتشار الإسلام بالسّيف، أن يقرأوا السّيرة النّبويّة قراءة متأنيّة، وينظروا فيها بعمق وإنصاف، ويتجرّدوا من الخلفيات المظلمة التي عشعشت في أذهانهم، ومنعتهم من رؤية الحقيقة النّاصعة والإذعان لها، ولقد بيّن العقّاد تهافت هؤلاء القوم الذين يزعمون انتشار الإسلام بالسيّف والعنف والإرهاب، فقال:

"أيّ إرهاب وأيّ سيف؟ إنّ الرّجل حين يقاتل من حوله إنمّا يقاتلهم بالمئات والألوف. . . وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا في الدّين الجديد، يتعرّضون لسيوف المشركين، ولا يعرضون أحدا لسيوفهم، وكانوا يلقون عنتا ولايصيبون أحدا بعنت، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة النّاقمين ولا يخرجون أحدا من داره، فهم لم يسلموا على حدّ السّيف، خوفا من النّبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه، بل أسلموا على الرّغم من سيوف المشركين، ووعيد الأقوياء المتحكّمين، ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السّيف ليدفعوا الأذى، ويبطلوا الإرهاب والوعيد، ولم يحملوه ليبدأوا أحداً بعدوان، أو يستطيلوا على النّاس بالسّلطان، فلم تكن حرب من الحروب النّبوية كلّها حرب هجوم، ولم تكن كلّها إلاّ حروب دفاع وامتناع"[١].

ويتحدّث"مهاتما غاندي"عن طبيعة انتشار الإسلام فيقول:

"أردت أن أعرف صفات الرّجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر... لقد أصبحت مقتنعا كلّ الاقتناع، أنّ السّيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرّسول مع دقّته وصدقه في الوعود وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربّه وفي رسالته، هذه الصّفات هي التي مهّدت الطّريق، وتخطّت المصاعب، وليس السّيف"[٢].

أمّا توماس كارلايل فلم يحفل بالوسيلة التي ينتشر بها الحقّ، بل إنّه ينظر إلى الأسباب التي أوجدت السّيف، فيقول:

"وأنا لا أحفل أكان انتشار الحقّ بالسّيف أم باللّسان أم بأية آلة أخرى، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصّحافة أو بالنّار، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها، فإنّها لن تهزم إلاّ ماكان يستحقّ أن يهزم، وليس في طاقتها قط أن تفني ماهو

(١) العقّاد، عبّاس محمود، عبقرية محمّد، المكتبة العصرية، ط ثانية، ٢٠٠٩، ص: ٢٣

(٢) أدلى بحديثه لجريدة "ينج إنديا Young India". موقع إسلام أون لاين www.islamonline.net

خير منها، بل ماهو أحطّ وأدنى"[١].

ولـمّا تمادى خصوم الحقّ في كفرهم واعتزازهم بالباطل، واضطهادهم للنّبي ﷺ وأتباعه وتكرار مطالبته في كلّ مرّة بمعجزة استهزاء به، دعا عليهم فأصيبوا بسنة قحط أكلوا فيها الميتة فما كان منهم إلاّ أن هرعوا إليه يستعطفونه، فأتاه سيّد المشركين أبوسفيان فقال: إنّك تأمر بطاعة اللّه وبصلة الرّحم وإنّ قومك قد هلكوا فادع اللّه لهم[٢]، فما كان من الدّاعية الرّحيم إلاّ أن دعا الله فكشف عنهم[٣]، ثمّ قال لهم: «تعودون»[٤]

روى البخاري بسنده أنّ قريشا لما استعصوا على النّبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتّى أكلوا العظام، فجعل الرّجل ينظر إلى السّماء فيرى مابينه وبينها كهيئة الدّخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٥]، قال فأتي رسول الله ﷺ فقيل له يارسول الله استسق الله لمضر فإنّها قد هلكت، قال لمضر إنّك لجريء، فاستسقى لهم فسقوا، فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾[٦].

فلمّا أصابتهم الرّفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرّفاهية، فأنْزل اللّه عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾[٧]، قال: يعني يَومَ بَدرٍ[٨]، وفي رواية أخرى: لـمّا رأى رسول الله ﷺ من النّاس إدباراً قال: «اللّهُمَّ سَبع كَسَبع يُوسَف»، فأخذتهم سنة حتّى أكلوا الميتة والجلود والعظام، فجاءه أبوسفيان وناس من أهل مكّة فقالوا: يا محمّد إنّك تزعم أنّك بعثت رحمة، وإنّ قومك قد هلكوا، فادع الله لهم، فدعا رسول الله ﷺ[٩] فسقوا الغيث فأطبقت عليهم سبعا فشكا النّاس كثرة المطر، فقال: « اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا»، فانجذب السّحاب عن رأسه فسقى النّاس حولهم[١٠].

الصبر الجميل:

---

(١) الأبطال، ص: ٧١

(٢) الصّحيح لمسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب الدّخان، ص: ١٢١

(٣) الجامع الصّحيح، كتاب تفسير القرآن، باب يغشى النّاس هذا عذاب أليم، ص: ٨٥٣

(٤) نفس المرجع.

(٥) سورة الدّخان، الآية: ١١ـ١٠

(٦) سورة الدّخان، الآية: ١٥

(٧) سورة الدّخان، الآية: ١٦

(٨) الجامع الصّحيح، كتاب تفسير القرآن، باب يغشى النّاس هذا عذاب أليم، ص: ٨٥٢، رقم ٤٨٢١

(٩) نفس المرجع السابق، كتاب تفسير القرآن، باب"ثمّ تولّوا عنه وقالوا معلّم مجنون" ص: ٨٥٣، رقم ٤٨٢٤

(١٠) ابن كثير، السّيرة النّبوية، ٢/٩٠، والرّواية أخرجها البخاري، الجامع الصّحيح، كتاب الاستسقاء، باب إذا استشفع المشركون، ص١٦٤، رقم ١٠٢

تحمّل الرّسول ﷺ في سبيل نشر الإسلام الكثير من أذى المشركين، وخاصّة من الطّاغية أبي جهل، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ النّبي ﷺ كان يصلّي عند البيت، وأبوجهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيّكم يجيء بسلى جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمّد إذا سجد فانبعث أشقى القوم، فجاء به، فنظر حتّى سجد النّبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه وأنا أنظر لا أغني شيئا لو كان لي منعة، قال فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتّى جاءته فاطمة فطرحت عن ظهره[1].

وعن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفّر محمّد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزّى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته أو لأعفّرنّ وجهه في التّراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلّي زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلاّ وهو ينكص على عقبيه ويتّقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إنّ بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا»[2].

وقد واجه نبيّ الرّحمة اضطهاد المشركين بالصّبر، فكان صبره رحمة أنقذت عمّه حمزة من الضّلال، فقد حدث يوما أن بالغ أبوجهل في إيذاء الدّاعية الرّحيم، ولم يسمع من الرّسول الدّاعية كلمة قاسية أو نابية، بل أعرض عنه ومضى في سبيله، فليس من شيمته ردّ السيّئة بالسيّئة، ولم يكن يوما سبّابا ولا لعّانا، وقابل سفاهته وطيشه وهمجيّته، بفيض من الرّحمة، راجيا أن يعود إليه رشده، ويفيق من ضلاله، وعندما رجع عمّه حمزة من الصّيد، أخبره من رأى بما جرى لابن أخيه من أبي جهل، فأخذته نخوة الرّجولة وحميّة القرابة للانتقام لابن أخيه، فكان ذلك سببا لهدايته، وترصّد أباجهل، فلمّا دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم فأقبل نحوه، حتّى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجّة منكرة، ثمّ قال: أتشتمه وأنا على دينه؟ أقول مايقول، فردّ ذلك عليّ إن استطعت، فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أباجهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإنّي والله قد سببت ابن أخيه سبّا قبيحا، وتمّ حمزة رضي الله عنه على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله، فلمّا أسلم حمزة عرفت قريش أنّ رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع وأنّ حمزة سيمنعه، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[3].

حمايته لأصحابه:

---

(١) الجامع الصّحيح، كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلّي قذر أو جيفة لم تفسد صلاته، ص: ٤٤

(٢) الصّحيح لمسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب قوله إنّ الإنسان ليطغى، ص: ١٢١٨

(٣) ابن هشام ،السّيرة النّبوية، ، ١٢٩/٢، والرّواية أخرجها الحاكم، المستدرك على الصّحيحين، كتاب معرفة الصّحابة، باب ذكر إسلام حمزة، ٢١٣/٣، رقم ٤٨٧٨، وقال الهيثمي: "رواه الطّبراني مرسلا ورجاله رجال الصّحيح"، انظر الهيثمي، مجمع الزّوائد، كتاب المناقب، باب ماجاء في فضل حمزة، ٤٣٣/٩،

كان الرّسول ﷺ يتقطّع قلبه ألما وحزنا على المستضعفين من المؤمنين الذين يراهم يتعرّضون للضّرب الشّديد والإهانات البالغة من المشركين، ولايستطيعون دفع البلاء عن أنفسهم، ولا أن يعبدوا الله آمنين، فبحث عن وسائل تحميهم من الفتنة في دينهم، وتقيهم شرّ عبدة الأصنام، ولم يدم تفكير نبيّ الرّحمة طويلا بل اتّخذ موقفا شجاعا وخاطر بنفسه رحمة بأصحابه، فأمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة التي يحكمها ملك عادل حتّى يجعل الله لهم مخرجا فعن أمّ سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ :« إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لاَ يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحَقُوا بِبِلاَدِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ»، فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالاً حَتَّى اجْتَمَعْنَا بِهَا فَنَزَلْنَا خَيْرِ دَارٍ إِلَى خَيْرِ جَارٍ أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا وَلَمْ نَخْشَ مِنْهُ ظُلْمًا[١]، وبقي الرّسول ﷺ في مكّة يواجه خصوم الحقّ ويتحدّاهم، فهل لهذا الموقف الشّجاع مثيل؟ ولهذه الرّحمة العظيمة من سابقة؟! إنّ هذا الموقف العظيم من الرّسول ﷺ كان محلّ إعجاب وتقدير المستشرق والوزير الرّوماني جيورجيو الذي بحث في التاريخ عن موقف مماثل له فلم يجده، فقال:

"وقرّ رأيه أخيرا على ترحيل المسلمين إلى الحبشة، بينما يبقى هو في مكّة متحمّلا كلّ الأخطار ولم يقم أيّ من الأنبياء السّابقين بمثل هذا التصميم"[٢].

وهذا درس بليغ للزعماء والقادة، فهو ﷺ لم يفرّ تاركا أصحابه للاضطهاد والتعذيب، بل حمى أصحابه بنفسه، وأمّن لهم مكانا يمنع المشركين من الوصول إليهم، والتسلّط عليهم، وكان بهم أحنّ من الوالدة على ولدها، وبقي هو في مكّة ينذر قومه الخطر القادم، وهم في غفلة معرضون، وقد روى مسلم بسنده فقال: انطلق نبيّ الله ﷺ إلى رضمة من جبل فعلا أعلاها حجراً، ثمّ نادى: « يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافَاهْ إِنِّي نَذِيرٌ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى الْعَدُوَّ، فَانْطَلَقَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ، فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ، يَا صَبَاحَاهُ »[٣].

وقال أيضا: « إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي

---

(١) السّنن الكبرى للبيهقي، تحقيق محمّد عبد القادر عطا، كتاب السّير، باب الإذن بالهجرة، ٩/٩، رقم ١٧٥١٢، والحديث صحيح، انظر الألباني، صحيح السّيرة النّبوية، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ط أولى، ص: ١٧٠، وانظر الألباني: السّلسلة الصّحيحة، ١٩٧/٨، رقم ٣١٩٠

(٢) كونستانس جيورجيو، نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ترجمة د/ محمد التونجي، الدار العربية للموسوعات، ط أولى، ١٩٨٣م، ص: ٢٣

(٣) الصّحيح لمسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى"وأنذر عشيرتك الأقربين"، ص: ١٠٩– ١٠٨

وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ»(١).

ومع شدّة إعراض المشركين عن دعوته وعدوانهم عليه، فهو ﷺ لم يملّ دعوتهم، ولم ييأس من إسلامهم، بل ظلّ يترفّق بهم، منتظراً اليوم الذي يبصرون فيه الحقّ الذي جاءهم به، وتشرق فيه قلوبهم بالإيمان ويواجه العقبات التي تعترض طريق دعوته بنفس صبورة، وعزيمة ثابتة، ولهجة صادقة، يرشد النّاس إلى طريق الهداية وينقذهم من النّار، كيف لا وهو القائل:« إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا»(٢).

حبّ التعاون:

كان الرّسول ﷺ لايحبّ التميّز عن أصحابه، ومع أنّهم كانوا يحبونه حبّا جمّا، ولايتأخّرون لحظة في تنفيذ أوامره والتضحية من أجله، وخدمته بلا كلل ولاملل، إلاّ أنّه كان بهم رؤوفا رحيما، لايكلّفهم من الأعمال ما لايطيقون، بل إنّه كان يشاركهم حتّى في الأعمال التي يستطيع أن يقوم بها عنه أيّ واحد من أصحابه دون أدنى مشقّة، ويحبّ أن لايكون مميّزا بينهم، ففي يوم الأحزاب كان يشارك أصحابه في نقل الحجر وقد حاولوا أن يكفوه ذلك لكنّه أبى إلاّ أن يتمّ عمله، وحتّى في بيته فقدكان يخدم نفسه، فيخيط ثوبه ويخصف نعله، إنّه يعيش مع النّاس، ويقودهم إلى مافيه خيرهم ورشادهم، ويعلّمهم أنّ العمل عبادة ويرفع من قدرالإنسان ولا يضعه.

شفقته بالمتعلّمين:

كان ﷺ شفيقا بالنّاس، قريبا من قلوبهم، لايشقّ على المتعلّمين فيما يعلّمهم، ويعطي كلّ صنف منهمماينفعه ويوجّههم إلى مافيه خيرهم، ويراعي نوازع نفوسهم، ولقد جاءه يوما فتية آمنوا بربهم ليعلّمهم أمور دينهم، فمكثوا عنده ليالي، فلمّا سألهم عن أهاليهم أخذته الرّأفة بهم، رغم قصر مدّة فراقهم فأمرهم بالعودة لديارهم، وتعليم أهاليهم القدر الذي تعلّموه منه.

روى البخاري بسنده عن أبي سليمان مالك بن الحويرث قال: «أتينا النّبيّ ﷺ ونحن شببةٌ متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة فظنّ أنّا اشتقنا أهلنا وسألنا عمّن تركنا في أهلنا فأخبرناه وكان رفيقا رحيما فقال ارجعوا إلى أهليكم فعلّموهم ومروهم وصلّوا كما رأيتموني أصلّي وإذا حضرت الصّلاة فليؤذّن لكم أحدكم ثمّ ليؤمّكم أكبركم»(٣).

ومن شفقته بالمتعلّمين مارواه مسلم: «قال أبو رفاعة: انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ، قَالَ:

(١) الجامع الصّحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، ص: ١٢٥٣

(٢) نفس المرجع، كتاب الرّقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، ص: ١١٢٤

(٣) المرجع السابق، كتاب الأدب . باب رحمة النّاس والبهائم، ص: ١٠٥١

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ رَجُلٌ غَرِيبٌ، جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ، لَا يَدْرِي مَا دِينُهُ، قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ، فَأُتِيَ بِكُرْسِيٍّ، حَسِبْتُ قَوَائِمَهُ حَدِيدًا، قَالَ: فَقَعَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ، فَأَتَمَّ آخِرَهَا»(١).

ومن شفقته ﷺ في تعليمه أنّه لايطيل في وعظه حتّى لايتعب المستمع، روى البخاري بسنده عن ابن مسعود قال: « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا»(٢).

وهذه الرّحمة تخلّق بها أصحابه من بعده، فكانوا رحماء بالنّاس، روى البخاري بسنده: «عن أبي وائل قال كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَوَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ قَالَ أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ وَإِنِّي أَتَخَوَّلُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِهَا مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا»(٣).

حلمه في تعليم النّاس:

كان ﷺ حليما لايضيق صدره من كثرة أسئلة النّاس، صبورا على جهالتهم، لايقابل السيّئة بالسيّئة، بل يدفع بالتي هي أحسن، ولايمنعه شيء من تعليم النّاس، وإن كان منشغلا قطع شغله وانصرف إلى السّائل، وأقبل عليه يعلّمه أمور دينه، روى الإمام أحمد بسنده عن المغيرة بن سعد عن أبيه أو عن عمّه، قال: أتيت النّبيّ ﷺ بعرفة فأخذت بزمام ناقته أو بخطامها فدفعت عنه، فقال: «دَعُوهُ فَأَرَبٌ مَا جَاءَ بِهِ» فَقُلْتُ نَبِّئْنِي بِعَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُنِي مِنْ النَّارِ قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ كُنْتَ أَوْجَزْتَ فِي الْخُطْبَةِ لَقَدْ أَعْظَمْتَ أَوْ أَطْوَلْتَ تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا تُحِبُّ أَنْ يُؤْتُوهُ إِلَيْكَ وَمَا كَرِهْتَ لِنَفْسِكَ فَدَعْ النَّاسَ مِنْهُ خَلِّ عَنْ زِمَامِ النَّاقَةِ »(٤).

حبّه الخير للجميع:

بعض النّاس يقصرون دعاءهم بالخير على أنفسهم ومن أحسن إليهم، وسكن حبّه قلوبهم، ولايرضون أن تصيب دعوتهم بالخير غيرهم من النّاس، لكنّ شخصية الرّسول ﷺ ليس من طبعها أن تضيّق واسعا، فهي تحبّ الخير للنّاس جميعا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ في صلاة وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا، فلما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: « لَقَدْ حَجَّرْتَ

(١) الصّحيح لمسلم، كتاب الجمعة، باب حديث التعليم في الخطبة، ص: ٣٥١

(٢) الجامع الصّحيح، كتاب العلم، باب ماكان النّبي يتخوّلهم بالموعظة، ص: ١٧

(٣) المرجع السابق.

(٤) ابن حنبل، المسند، حديث ضرار بن الأزور، مؤسّسة الرّسالة، ط ثانية، ١٩٩٩م، ٢٥٩/٢٧، رقم ١٦٧٠٥، وقال الألباني: "الحديث بمجموع هذه الطّرق صحيح". انظر الألباني: السّلسلة الصّحيحة، ٤/٨، رقم ٣٥٠٨

وَاسِعًا –يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ–»[١]، إنّه يعلمنا أنّ الرّحمة تنْزع الضّغينة من القلب، وتمسح مابه من أحقاد، وترقّق النّفس، وتشرح الصّدر، وتجعله رحبا واسعا منفتحا على جميع الخلائق، وأمّا فظاظة القلب، فإنّها تحجّر رحمة الله الواسعة، والرّحيم من كان بالنّاس رحيما.

إحساسه بالآخرين:

كان الرّسول ﷺ يعمل على إزالة مفاهيم العصبيّة من أذهان ونفوس أصحابه، ويغرس محلّها مفهوم الأمّة المسلمة التي تجعلهم يشعرون بضرورة التراحم والتلاحم فيما بينهم، ويتعاونون في السرّاء والضرّاء حتّى لكأنّهم جسد واحد، فيقول: « تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[٢].

فمن تقوقع على ذاته، ولم يهتم بغيره، وتنصّل من هذا الجسم، ولم يشارك بقيّة الأعضاء إحساسها، فقد جنى على نفسه، وسرعان ما ينتهي ويزول، وإنّه"كما يدين يدان"، وقد حذّر النّبيّ من عواقب السّير في هذا الطّريق المظلم، فقال: « مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ »[٣]. ويتحدّث العقّاد عن علاقة النّبي بالنّاس فيقول:

"هذه العاطفة الإنسانية التي رحبت حتّى شملت كلّ ما أحاطت به وأحاط بها، لم تكن هي كلّ أداة الصّداقة في تلك النّفس العلوية، بل كان معها ذوق سليم يضارعها رفعة ونبلا، ويتمثّل فيما يرجع إلى علاقات النّبي بالنّاس في رعاية شعورهم أتمّ رعاية، وأدلّها على الكرم والجود"[٤].

رفقه بالحاقدين:

كثير من الحاقدين كانوا يسلقون الرّسول ﷺ بألسنتهم، ويظهرون له العداوة المضمرة في قلوبهم، ويتمنّون له الموت لكنّه يقابل جهالتهم بالرّفق واللّين!ويتحمّل أذاهم، وهو في مقام رفيع، صاحب قوّة، يأمر فيطاع. إنّه بحقّ أرحم النّاس بالنّاس، أدّبه ربّه فأحسن تأديبه، فعن عروة بن الزّبير أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: دَخَلَ رَهْطٌ مِنْ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا السَّامُ عَلَيْكُمْ قَالَتْ عَائِشَةُ فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَهْلًا يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ »[٥].

(١) الجامع الصّحيح، كتاب الأدب، باب رحمة النّاس والبهائم، ص: ١٠٥١، رقم ٦٠١٠

(٢) المرجع السابق

(٣) الجامع الصّحيح، كتاب الأدب، باب رحمة النّاس والبهائم، ص: ١٠٥١، رقم ٦٠١٣

(٤) عبقرية محمّد، ص: ٨١

(٥) الجامع الصّحيح، كتاب الأدب، باب الرّفق في الأمر كلّه، ص: ١٠٥٣

إنّ هذه القدوة الحسنة، هي التي ينبغي أن يتأسّى بها، فهو ﷺ لم يكن بعيدا عن واقع الناس، يعيش في برج عال، ويرسل منه تعليمات في التربية والتعليم، بل كان يعيش بين النّاس، يألم كما يألمون، ويفرح كما يفرحون، ويحزن كما يحزنون، ذاق ألم الجوع، ومرارة اليتم، وضيق الحصار، وعذاب الطّرد، ولكنّه كان ذا شكيمة قويّة، ونفس كبيرة لا تتنازل عن معنى الإنسان، وظلّ في طريقه سائرا، وعلى دعوته صامدا، لم تلن له قناة ولم يكلّ أو يملّ، وتوافدت عليه قوى الظّلم من كلّ مكان، وتجمّعت ضدّه لتتخلّص منه، ففتح لها ذراعيه واحتضنها وجعل منها روافد خير للإنسانية، وهذه هي العظمة الحقيقية التي لاتقف عند الغلبة على العدوّ، بل في القدرة على جعل هذا العدوّ صديقا حميما!!. فهل رأت البشرية تربية وتعليما، أعظم من تربيته وتعليمه صلوات ربي وسلامه عليه؟

الخاتمة وفيها:

أهمّ نتائج البحث:

١- العلاقة بين التربية والتعليم علاقة تكاملية.

٢- التربية والتعليم مرآة مستقبل الأمّة.

٣- سمو التربية الإسلامية عن غيرها من المناهج الوضعية.

٤- ضرورة الاعتناء بتطوير مناهج التربية والتعليم في إطار منظومة القيم الإسلامية.

٥- التركيز على إصلاح الأسرة.

٦- التربية والتعليم نوع من الاستثمار في عمار الأرض.

وصلّى الله تعالى على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما.

